مقدمـــة

كان هاجساً.. حُلُماً، وأنا أضرب في تيهِ التحولات..

أقدامي المعلقة فوق الســحاب المُخترق بمعــادن الطائرات وأزيزها كانت تتحرق شوقاً للتجولِ على رمال الجزيرة العربية.. اللاهبة..

ففــي الزمــنِ الذى نحن فيه.. وأنا متســق مع داخلى المفضى إلى ذلك الاتســاع الرحــب.. قلت فلتكن زيارات وليس زيارة، وتهيأت للخروج من زمنى.. إلى عباءة الجاهلية..

كنــت ناقشــت ذلك الخروج مع «لندن» حيث مقر جريــدة «الحياة» التى كنت وقتها – فى منتصف التسعينات – أعمل ضمن «كتائب» محرريها وقال لى الزميل مصطفى زين: فلتكن زيارة شاعر لشعراء، لا زيارة صحفى لأمكنة..!!

لكن التحديد كان صعباً..

لأن هذه الأمكنة عاشت بعد أصحابها أكثر من ١٥٠٠ عام تبدلت فيها التضاريس والملامــح، وأمعنت جغرافيا البشــر فى الاختلاف، وكان الهاجس الأساســى هو الاحتكام إلى كتب التاريخ ومداولة الشواهد، ومطاردة المعالم من المعلقات.. ومعانى الشعر المكانية..

ولأن كثيراً من خالدى الشعر والذكر كانوا هنا.. فى الجزيرة العربية التى يمثل معظمها الآن الدولة الحديثة: المملكة العربية السعودية، فقد كان الأهم فى الاختيار بينهــم.. التوفيق فى العثور على ضالتنا منهم: أمكنتهم.. وطقوســها المجازية فى أعماق ظلالها المنكسرة من الحجر..

واســتغرق البحث وتحديد الأماكن شــهوراً، لكن المســاعدات القيمة لا تُنسى: من ملاحظات الشــيخ حمد الجاسر، إلى اجتهادات الناقد فائز أبا والشاعر عبدالله باهيثــم، إلى مســئولين عن إدارات المناطق الســعودية مكان البحــث، إلى أصدقاء مختلفين تابعُوا الترحال، إلى أدلة طرق وأبناء قبائل مختلفة.. إلى مصادر بحث فى جامعة الملك عبدالعزيز بجدة.

وكان الاختيار لشعراء تم التحقق فعلاً من أماكنهم، أما الذين شاب البحث عنهم طيوف من شك فقد عادوا مرة أخرى إلى جيوب الذاكرة، لذا قد لا تجد هنا إلا قليلاً منهم فى العدد، كثيراً لهم فى القلوب: من امرئ القيس إلى عنترة العبسى مروراً بزهير بن أبى سلمى وعروة بن الورد، ثم حاتم الطائى الذى كان خاتمة المطاف..

وهى زيارة قد تقع فى خانة دراسة المكان قبل أن تكون معنية برصد التضاريس وجغرافيا الحواف والأودية والبطون..

كما أنها زيارة تحاول الاتصال المعرفى على جسر الزمن الطويل بثقافة ذلك المكان المغرق فى خلوده.. وغموضه..

وحين نُشر بعض هذه الزيارات فى جريدة «الحياة» زال العناء، ولما لم يكتب لبعضها الآخر أن يرى النور لأسباب «إعلانية» بحتة، فقد طرأت فكرة جمعها فى كتاب يحمل ذلك العنوان..

وهو كتاب يخرج عن أطر الدراسات المألوفة كما قلنا، ونزيد بأن مصادره ضمنية، أى إن القارئ لن يجد ثبوتات مألوفة لها، وذلك خرقاً للعادة وخروجاً على المألوف..!

ألم نقل إنه خروج..؟

حتى وإن كان إلى عباءة الجاهلية..؟!

أحمد مرتضى عبده